مقتطفات من سيرة حياة

رسول التواضع القديس

فرنسيس الأسيزي

(١١٨١ – ١٢٢٦م)

الذي استمع

السلطان الأيوبي الكامل

لخطبته وأعجب بجرأته وأوصى به خيراً

بقلم

توماس أوف سيلانو

الترجمة: محمود عباس مسعود

بسم الله وبه العون، آمين.

هنا تبدأ مقدمة سيرة حياة القديس المبارك فرنسيس.

أود القيام بسرد منظم وبإخلاص روحي عميق لحياة القديس العظيم فرنسيس، متوخياً الدقة والحقيقة قبل وفوق كل اعتبار، ومتخذا الحق مرشدي وملهمي في مسعاي هذا. ولكن نظراً لعدم تمكن أي شخص من تذكّر كل الأشياء التي قام بها فرنسيس وعلّمها فقد حاولت تلبية لأمر قداسة البابا أن أدوّن بحسب مقدرتي وبعبارات بسيطة على الأقل تلك الأمور التي سمعتها مباشرة من فم القديس نفسه، وتلك التي حصلت عليها من شهود صادقين وموثوق بنزاهتهم. وإنني لأرغب صادقاً بأن أستحق بأن أكون تلميذاً له وأتشبه به في بساطته، كونه كان يتحاشى التصنّع واستعمال العبارات الغامضة وفنون البلاغة والزخرفة اللغوية.

لقد قسّمت المعلومات المتعلقة بالقديس فرنسيس، التي تمكنت من جمعها، إلى ثلاثة كتب موزعة على فصول مستقلة بحيث يسهل على القارئ استيعاب محتواها دون أن يتطرق إليه الشك حول صحتها. فالكتاب الأول يعالج، بحسب التسلسل الزمني، حياته الطاهرة وسلوكه المثالي وسعيه المقدس نحو الفضيلة. كما يتطرق أيضاً إلى تعاليمه الروحية ويتضمن عددا من المعجزات الكثيرة التي قام بها الله العلي القدير على يدي القديس أثناء وجوده في الجسد. أما الكتاب الثاني فيسرد أحداث السنة الأخيرة من حياته وحتى انتقاله المغبوط إلى الرفيق الأعلى. بينما يعالج الكتاب الثالث العديد من كرامات هذا القديس العجيب والخوارق التي تمت على يديه إبان وجوده على هذه الأرض وتواصله بالروح مع الله في السماء في نفس الوقت.

ويتحدث أيضاً عن التقدير البالغ والإحترام الجزيل والمجد الذي اختصه به قداسة البابا ومجمع الكرادلة عندما زيّنوا بإسمه المبارك قائمة القديسين.

فالمجد لله والحمد له الذي يظهر ذاته من خلال قديسيه الذين يستحقون المحبة والإكرام والتقدير والإحترام.

في مدينة أسيزي (بإيطاليا) الواقعة على كتف وادي سبوليتو عاش رجل إسمه فرنسيس.

وكان أبواه قد غرسا في نفسه الإباء والكبرياء منذ نعومة أظفاره بما يتناسب مع روح العالم وبهرجه. وإذ ترسّم حياتهما وقلّد عاداتهما التعيسة لفترة طويلة، فقد ازداد إباءً وعنجهية.

وكان في تلك الأيام أن عادة رذيلة قد ترسخت في نفوس الذي يدّعون أنهم مسيحيون؛ إذ كانوا يبذلون قصارى جهدهم لتربية أبنائهم منذ مراحل الطفولة المبكرة تربية فاسدة فاسقة. فما كاد أولئك الأطفال يتعلمون النطق حتى يبدأ الكبار بتعليمهم بالإشارات وبالألفاظ أشياء خبيثة وخسيسة. وعند بلوغهم مرحلة الفطام كان الكبار يضطروهم لا للتلفظ بالمنكر وحسب بل أيضا القيام بتصرفات شهوانية لا أخلاقية.

وإذ كان الأبناء يتوجسون خيفة، فما كان أحد منهم ليجرؤ على انتهاج مسلك سليم وقويم، لأن الطفل لو حاول ذلك لعرّض نفسه لأشد العقاب. وقد قال أحدهم في هذا الصدد: "بما أننا نشأنا وسط ممارسات آبائنا وأمهاتنا فإننا نندفع وراء الأمور الشريرة منذ بواكير العمر."

هذا قول صادق، لأن تلك المؤثرات الأبوية الذميمة لا تفلح إلا في إلحاق أكبر الضرر في أبنائهم. وكان كلما تقدم العمر بالأبناء كلما انغمسوا في مستنقعات الرذيلة امتثالاً لأهوائهم وميولهم المنحرفة، لأن من الجذور الفاسدة تنبت شجرة فاسدة. ومن تربى على الشر والإنحراف الأخلاقي لا يمكن أن ينسجم أبداً مع مبادئ الإستقامة والفضيلة.

ومع بلوغ سن المراهقة كانوا ينطلقون دون رادع في دروب الفسق والخلاعة والمجون وينخرطون في ممارسات مخزية دون أدنى وازع لأن المجتمع كان يشجعهم على القيام بتلك الأفعال الدنيئة دون محاسبة. وما أن يستسلموا بمحض إرادتهم للخطيئة ويصبحوا عبيداً لها حتى تستسلم باقي أعضائهم للممارسات الكريهة والأفعال المستقبحة، ولا يبقى ما يدل على أنهم مسيحيون سوى أسمائهم. وهؤلاء التعساء يتظاهرون أحياناً بأنهم قاموا بفعل أشياء مشينة وأكثر سوءاً مما قاموا به فعلا خشية أن يتعرضون لاحتقار الآخرين لهم فيما إذا ظهرت عليهم علامات البراءة والإستقامة.

تلك كانت الظروف البائسة والأجواء التعيسة التي عاش في وسطها ذلك الرجل الذي نقدّره اليوم وندعوه قديساً، لأنه كان بالفعل قديساً وأي قديس!

لقد أمضى سني شبابه ولغاية الخامسة والعشرين مبدداً وقته بضياع كلي. وبالفعل فقد فاق فرنسيس كافة رفاقه بالبهرجة والتشجيع على الممارسات الخاطئة، وكان حماسه لارتكاب الحماقة والأعمال الطائشة لا يكاد يقف عند حد. لقد كان محط إعجاب الجميع وقد بذل قصارى جهده للتفوق على أقرانه في الألعاب والفصاحة والغناء وارتداء الثياب الفاخرة لأنه كان ثرياً جداً. غير أنه لم يكن مقتراً أو حريصاً على جمع المال والممتلكات، بل كان مبعثراً لما بين يديه.

كان تاجراً حذراً وفي نفس الوقت سخياً إلى أقصى حد في شراء كل ما يستهوي زهوه ويرضي خيلاءه. ولكن في المقابل كان لطيفاً للغاية، ليّن العريكة ودمثاً لدرجة أنه كان يبدو أحمقاً في نظر الآخرين بسبب امتلاكه لتلك الطيبة.

ومع ذلك فقد شجعت تلك الطيبة الكثير من فاعلي الإثم ومروجي الجرائم للجري وراءه. وهكذا فقد ازداد عدد رفاق السوء من حوله وزاد إعجابه بنفسه فراح يتبختر في شوارع بابل (أسيزي) إلى أن نظر إليه الرب من السماء وتحنن عليه ولجمه عن غيّه خوفاً من هلاكه. إذ حدث له تغيّر روحي كبير على يد العلي القدير، وكان هذا التحوّل العجيب الذي حصل له بمثابة التشجيع والأمل للخاطئين كي يقتدوا به ويرتدّوا ويرتدعوا عن أخطائهم ويتوجهوا بقلوبهم إلى الله منبع كل نعمة ومصدر كل خير.

عندما كان هذا الفتى في عنفوان الشباب كان أبناء جيله يحثونه على المضي في الغي والإستهتار والجري الحثيث وراء الغرائز والشهوات. وعندما لم يعرف كيف يضبط نفسه ويلجم رغباته تحرّك في نفسه سم الحية القديم، وفجأة حل به العقاب الإلهي، أو فلنقل حلّت عليه الرحمة الإلهية في محاولة لكبح جماح حواسه الناشزة الخاطئة. حدث ذلك عندما أصيب فجأة بآلام نفسية وجسدية حادة بسبب النبوءة القديمة:

"سأسيّج طريقك بالشوك وأسدّه بجدار منيع."

وإذ أنهكه المرض الطويل بحسب ما يستحقه عناد الإنسان عندما يستحيل تقويمه إلا بالعقاب، راح يفكر بأشياء لم تكن لتخطر على باله من قبل. وعندما تماثل لبعض الشفاء وشرع بالمشي في البيت بمساعدة العكاز استرداداً لعافيته، ذهب خارجاً ذات يوم وأخذ يحدّق في المناظر الطبيعية من حوله باهتمام كبير. لكن جمال الحقول ونضرة الكروم وكل ما كان جميلا من قبل لم يوقظ به مشاعر البهجة والسرور. وقد دهش لهذا التغيّر المفاجئ الذي حدث له وأصبح يعتبر المتلذذين بتلك المتع مجرد حمقى متسكعين على هامش الحياة.

ومنذ ذلك اليوم أخذ يحتقر نفسه ويزدري الأمور التي كان متعلقاً ومعجباً بها من قبل، ولكن ليس احتقاراً كاملا، لأنه لم يكن قد تحرر بعد من قيود الزهو والكبرياء. كما لم يكن قد أزاح عن عنقه نير العبودية الشريرة الضاغط.

في الواقع من الصعب جداً التخلص من الأشياء التي يتعود عليها المرء، فالأمور الشريرة التي تدخل العقل يصعب اقتلاعها من الجذور. ومع أن الفكر قد يبتعد عن تلك الأمور لفترة طويلة لكنه يعود إلى ما تعود عليه. وبالتكرار المستدام تصبح الرذيلة طبيعة ثانية في الإنسان.

وهكذا حاول فرنسيس الإفلات من يد الله ناسياً لبعض الوقت التصحيح الإلهي الذي حدث له، إذ راح يفكر من جديد بالأمور الدنيوية وسط رغد العيش والثراء الباسم، متجاهلا إرادة الله.

وكان لا يزال يطمح إلى إنجاز أعمال عظيمة تجلب له الجاه والمجد الدنيوي. وقد حدث أثناء تلك الفترة أن أحد نبلاء أسيزي كان يجمع ترسانة من الأسلحة على اختلافها لاقتناص المجد، وقد أقسم بأنه سيذهب إلى مدينة أبيوليا لزيادة ثروته وشهرته معا. وما أن سمع فرنسيس بذلك حتى التهب حماساً وتحرّقاً لمرافقته. لقد كان فرنسيس أدنى منزلة من ذلك الرجل من حيث النبل وعراقة المولد، لكنه أسمى من حيث الكرم والسخاء: دونه في الثراء وفوقه في العطاء.

وذات ليلة بينما كان يتفكّر في ما ينبغي عليه عمله لإنجاز مهمته وتحقيق مأربه، امتلأ صدره طموحاً وتاق أشد التوق للشروع في الرحلة المزمعة. ولكن الله الذي أدبّه بعصا العدالة في المرة الأولى أنعم عليه هذه المرة برؤية ليلية. وحيث كان فرنسيس متلهفاً للمجد فقد أغراه الله ورفع مستوى أفكاره، إذ أراه بالفعل أعلى قمم المجد الحقيقي. ففي هذه الرؤيا رأى فرنسيس أن بيته كان مليئاً بجميع أصناف الأسلحة ومستلزماتها من سروج وتروس ورماح وغير ذلك الكثير. وإذ ابتهج كثيراً راح يفكر بينه وبين نفسه عن معنى تلك الرؤية في بيته، لأن ما كان معتاداً على رؤيته في بيته كان أكوام وأكداس الأقمشة والثياب المعدّة للبيع. وكم كانت دهشته عندما قيل له (في الرؤيا) أن كل تلك الأسلحة والتجهيزات الحربية ستكون له ولجنوده. وعندما استيقظ نهض مع الفجر بقلب جذل معتبراً الرؤيا فألا مباركاً بنصر مؤزر، وأيقن أن رحلته إلى أبيوليا سيكتب لها نجاح عظيم. لقد عقدت الدهشة لسانه ولم يكن يعرف بعد طبيعة المهمة التي أعدّتها وتعدّها له العناية الإلهية. وقد يكون ظن أن تفسير الرؤيا لم يكن صحيحاً، لأنه بالرغم من أن الرؤيا كانت تتسم ببعض ملامح الحرب لكن قلبه لم يمتلئ بتلك السعادة التي كان يحس بها من قبل عند رؤية مثل تلك الأمور. وراح يضغط على نفسه للتحضير لبرنامج الرحلة وإتمام ما خطط له، في حين كانت القدرة الإلهية تعدّه لمهمة أخرى، ولم تكن تلك الرؤيا سوى رمز لتلك المهمة (الروحية الأخلاقية) التي سيتم إعداده لها كي يرفع رايتها عالياً لأنه كان أهلاً لها دون سواه من البشر في ذلك الزمان والمكان.

إذاً تغير فرنسيس بالعقل ولكن ليس بالجسد، إذ رفض الذهاب إلى أبيوليا وجاهد لتطويع إرادته لإرادة الله. ونتيجة لذلك فقد انسحب لفترة ما من هرج العالم ومرجه محاولاً تأسيس محراب إلهي داخل نفسه والإحتفاظ بالسيد المسيح في أعماق قلبه. وكالتاجر الفطين فقد خبأ الجوهرة التي عثر عليها عن عيون الساخرين والمستهزئين محاولاً في ما بعد شراءها ببيع كل ما لديه. وبالحقيقة بما أنه كان هناك شاب يافع في أسيزي من أترابه، وكان فرنسيس يعزه أكثر من سواه ويفضله على الجميع فقد شعر برغبة ملحة في إطلاعه على سره نظراً لصداقتهما الطويلة والحميمة. وكان فرنسيس غالباً ما يأخذه إلى أماكن منعزلة مناسبة للتأمل ويقول له أنه عثر على كنز عظيم وثمين. ذلك الشاب كان يطير فرحاً لسماع ذلك، وبدافع الفضول كان يذهب معه عن طيب خاطر كلما دعاه فرنسيس لمرافقته.

وكان يوجد قرب المدينة كهف كانا يذهبان إليه بوتيرة متكررة ويتحدثان عن الكنز. وكان رجل الله (القديس فرنسيس) الصافي النية والنقي السريرة يدخل الكهف (للتأمل الروحي العميق) بينما يظل رفيقه ينتظره خارجاً. وإذ كان فرنسيس يمتلئ بحماس جديد غير اعتيادي فقد كان يبتهل في سره لله ويفرح لأن أحداً لم يكن يعرف ما كان يفعله داخل الكهف. لقد كان متكتماً على أشواقه وعباداته ويطلب العون من الله وحده بخصوص مقرراته الروحية. لقد ابتهل لله بكل صدق وإخلاص كي يسدد خطاه ويعلمه الإمتثال لإرادته. أفكار الإثارة كانت تثور حوله وتلفه لفاً لكنه لم يستسلم لها بل عقد العزم على تحقيق طموحه الروحي بأي ثمن.

الأفكار على اختلافها ظلت تتوارد عليه وتزدحم في عقله وتضايقه كل المضايقة بإلحاحها المتواصل، لكن شعلة قدسية راحت تضطرم في روحه ولم يعد قادراً على إخفاء حماسه اللاهب

عن العالم من حوله. ولقد كانت أطياف حياته المادية تؤرقه ويتأسف على سلوكه السابق، غير أن حياة الجاه والبذخ لم تعد تستهويه كما كانت في الماضي. ومع ذلك كان يرهب الإندفاع مجددا نحو تلك الحياة المادية والسعي ثانية وراء الأمجاد والملذات الأرضية. وفي كل مرة كان يخالط بها رفاقه القدامى كان يشعر بوهن يعتريه عند مغادرتهم، وكأنه بذلك فقد الكثير من نشاطه وهمته لمجرد مخالطتهم.

وذات يوم توسل إلى الرحمة الإلهية من كل قلبه فأظهر له الله الطريق الذي ينبغي أن يسلكه. ومنذ تلك اللحظة امتلأ بفرح عظيم لم يقدر على احتوائه أو إخفائه. إذ بالرغم عن إرادته كان بعض فرحه يفيض عنه ويشعر به الآخرون. لقد كان حبه الإلهي عظيماً لدرجة أنه لم يتمكن من التكتم عليه، غير أنه كان يتكلم بكثير من التحفظ ويستعمل الأحاجي والرموز.

ومثلما تحدث إلى رفيقه عن الكنز المخبوء الذي عثر عليه، حاول أيضاً أن يتحدث للآخرين وبنفس الأسلوب المجازي. وقال للناس أنه لا يرغب بعد الآن في الذهابإلى أبيوليا، لكنه وعدهم بإنجاز أعمال كبيرة ورائعة في مدينته. وظن الآخرون أنه سيتزوج فسألوه: "هل ستتخذ لك زوجة يا فرنسيس؟" فكان يجيبهم: "نعم سأتخذ لي عروساً من أنبل وأجمل العرائس التي رأتها عيونكم، وستفوق الجميع بحسنها وحكمتها!" تلك العروس الإلهية لم تكن سوى الدرب الروحي الجديد الذي عثر عليه، وأما مملكة السماء فقد كانت ذلك الكنز الذي بحث عنه بهمة وحماس نادرين. حقاً لقد كانت العناية الإلهية تقوم بإعداده لغاية عظيمة لا يحسن القيام بها إلا أعاظم القديسين أمثاله.

وما أن دنت الساعة المحددة حتى حضّر القديس نفسه يعضده الروح القدس، وقد استمع لنداء روحه السعيد وانطلق نحو الخير الأعلى بعد أن نبذ الأمجاد الأرضية ورماها خلف ظهره. ومن ناحية أخرى لم يعد بمقدوره أن يتأخر لأن المرض المميت (الفسق والرذيلة) قد انتشر في كل مكان وعلى نطاق واسع وشلّ أعضاء الكثيرين فكادوا يموتون لولا إسعاف الطبيب لهم.

وهكذا نهض مستعيناً بالله فسرج حصانه وامتطى صهوته وأخذ معه حزمة من القماش القرمزي النفيس كي يبيعها وانطلق مسرعاً إلى مدينة فوليغنو. وما أن وصل المدينة حتى باع البضاعة هناك على جري عادته وكانت صفقة رابحة! وعلاوة على القماش فقد باع حصانه أيضا وعاد سيراً على الأقدام، متخففاً من حمله ومتفكراً بالكيفية التي سيقوم بها بتوزيع المال الذي ربحه.

وإذ اهتدى بسرعة وبأعجوبة إلى خدمة الله فقد شعر بأن المال الذي في حوزته سيكون عائقاً له حتى ولو بقي في يده لساعة أخرى. ففكر في صرفه لوجه الله. وفي طريقه إلى أسيزي لاحظ كنيسة بجانب الطريق كانت قد بُنيت قديماً تكريما للقديس سان ديميانو وهي الآن على وشك التداعي والسقوط.

وعندما اقترب القديس من الكنيسة تأسف على وضعها ودخل إليها برهبة وخشوع. وإذ وجد كاهناً متواضعاً هناك قبّل فرنسيس يده بإيمان عظيم وأعطاه كل ما لديه من مال وأطلعه على نيته. تعجّب الكاهن من ذلك التحوّل المفاجئ والعجيب الذي حدث للشاب فرنسيس ولم يصدق أذنيه، بل حسب أن القديس كان يسخر منه فرفض أن يتقبل المال المعروض عليه. وبالحقيقية

فقد كان فرنسيس قبل ذلك بيوم واحد يعيش عيشة الكيف والبذخ مع رفاقه وأقربائه ويفوقهم جميعاً بالفخفخة والمباهاة.

لكن بإصرار كبير حاول الشاب إقناعه بصدق كلامه متوسلاً إليه كي يسمح له بالعيش معه إكراماً لحب الله. وأخيراً رضي الكاهن وقبل طلب فرنسيس فسمح له بالإقامة معه لكنه لم يقبل المال خوفاً من أهل فرنسيس. وهنا رمى فرنسيس المال جانباً ولم يأبه به كأنه حفنة من تراب. وكانت رغبته الوحيدة امتلاك الحكمة والفهم اللذين هما أثمن من الذهب والفضة.

وبينما كان خادم الله (القديس فرنسيس) مقيماً في ذلك المكان راح والده يبحث عنه ويتقصى أخباره كما لو كان رجل تحرٍّ ليعرف ما جرى لابنه. وما أن علم أن فرنسيس كان يعيش هناك وبتلك الطريقة حتى تملكه حزن عميق وانزعج إلى أقصى حد، فجمع أصدقاءه وجيرانه وأخذهم إلى المكان الذي كان يقيم به خادم الله. وما أن سمع فرنسيس الوعيد والتهديد، وقد كان حديثاً في الروحيات وغير متمرس في مواجهة التجارب العصيبة، حتى تملكه الخوف فهبط إلى سرداب سري كان قد حفره بيديه لهذه الغاية بالذات كي ينجو من العقاب المحدق به.

وعلى مدى شهر كامل بقي مختبئاً في ذلك الخندق الذي كان في بيته الجديد ولم يعرف به سوى شخص آخر فقط هو الكاهن. وما كان ليجرؤ على الخروج من مخبأه إلا لقضاء حاجياته الضرورية. وعندما كان يحصل على الطعام من حين إلى آخر كان يأكل في الحفرة المظلمة، والخدمات التي كانت تُقدم له كانت تتم بسرية تامة. وبدموع غزيرة ابتهل لله كي ينجيه من أيدي الذي كانوا يحاولون إيقاع الأذى به حتى يتمكن من الوفاء بنذوره الروحية التي قطعها على نفسه. وخلال فترات صيامه وبكائه كان يطلب الرحمة والمغفرة من السيد المسيح وقد سلّم أمره لله وتوكل عليه. ومع أنه كان يعيش في الحفرة المظلمة غير أنه كان ممتلئاً بفرح لا يوصف لم يشعر به من قبل. وإذ شحنته تلك النار المقدسة بوهجها المبارك تشددت عزيمته وهجر ملجأه معرّضاً نفسه لإهانات معذبيه وشتائمهم.

وهكذا نهض متحفزاً وعلى أهبة الإستعداد لمواجهة ما ينتظره وتدرّع بالإيمان لمحاربة قوى الشر في المعركة الإلهية التي سيخوضها وشرع بالسير نحو المدينة. وإذ شعر بحماس إلهي منقطع النظير راح يتهم نفسه بالتقصير والتخاذل. وما أن اقترب من الناس حتى راح كل معارفه يقارنون حالته الحاضرة بوضعه السابق ويتهمونه بالحماقة والجنون ويرشقونه بالوحل والحجارة.

كما لاحظوا أنه قد تغيّر كثيراً عن ذي قبل وأنهك التقشف جسمه. وظنوا أن تصرفه ناجم عن الإعياء والجنون. ولكن بما أن الصبر أعظم من الصلف فلم يعر رجل الله أذناً صاغية لما كانوا يقولونه ولم يفقد أعصابه ولم يسمح لتهكمهم وسبابهم بتعكير سلامه، بل شكر الله على تلك التجارب.

من العبث أن يقف الخاطئون في درب الراغبين في عمل الصلاح، لأن إرادة المؤمنين لا يمكن لشيء أن يقف في وجهها أو يصدها أو يحرفها عن غايتها. بل كلما أحسوا بالمقاومة كلما ازدادوا عزماً وعناداً في سبيل الحق. وفي هذا الصدد قال أحدهم إن الإهانة تزيد النفس الكريمة إباءً وتجعلها أكثر قوة.

تعالت الصيحات وانتشر الصخب في طول ساحات المدينة وعرضها حتى بلغ الهزء والاستهجان من القديس مسامع العديد من الناس ومن بينهم والده الذي ما أن سمع الآخرين يتلفظون بإسم ابنه حتى شعر بأن كل الإهانات موجهة إليه شخصياً. فانطلق مسرعاً لا ليمحي ابنه بل ليدمّره. وقد تخلى عن كل اعتبار أبوي وانقض على فرنسيس انقضاض الذئب الشرس على الحمل الوديع، وراح يرغي ويزبد ويوبخه أعنف التوبيخ، بل راح يكيل له اللكمات واللطمات وقد جرّه جرّاً أمام الناس إلى بيته حيث سجنه دون رحمة أو شفقة في مكان مظلم، محاولاً تطويعه لإرادته أحياناً بالكلام وأحياناً أخرى بالضرب والتقييد بالسلاسل.

لكن الشاب الذي ما ازداد إلا قوة وإيماناً بفعل هذه المعاملة المشينة والمعاناة الأليمة، أصبح أكثر استعداداً لتحقيق مطامحه المقدسة. فهو لم يفقد صبره أو أيمانه بسبب التعنيف أو السجن المهين. وبالحقيقة فإن الرجل الذي طُلب منه أن يتقبل تجاربه المريرة بالتهليل والفرح لن يتراجع عن مقرراته الحكيمة أو يتخلى عن مشاعره الإلهية استجابة للوعيد والتهديد. لقد احتمى بالسيد المسيح في أوقات الشدة والضيق ولن يرتجف أمام المصاعب والمصائب مهما كانت رهيبة عاتية.

وحدث أن أموراً عائلية اضطرت والد فرنسيس لمغادرة بيته الذي كان رجل الله محبوساً فيه. وإذ كانت والدته وحيدة معه في البيت، وحيثها كانت تستنكر معاملة والده له، فقد تحدثت إلى ابنها بكلام عذب رقيق محاولة ثنيه عن قراره، لكن دون جدوى. أخيراً تحنن قلبها عليه فقامت بتقطيع الأربطة التي كانت تقيده وتركته يذهب طليقاً. أما هو فقد شكر العلي القدير على حريته وعاد إلى نفس المكان الذي كان به قبل أسره. وكانت التجارب التي خاضها والصعوبات التي واجهها قد جعلته أكثر احتمالا وأكثر طمأنينة. ولم تكن المعاملة السيئة التي تعرّض لها إلا لتزيده عزماً وإصراراً، إذ تقوّت روحه وارتفعت معنوياته ومضى في حال سبيله دون أن يخشى في الحق لومة لائم.

وعندما عاد والده إلى البيت ولم يجده فيه استشاط غيظاً وغضباً وراح يطلق الشتائم البغيضة ويمطر زوجته بوابل عنيف من اللعن والتعنيف. ثم انطلق إلى سان ديميانو بهيجان صاخب ليطلب من ابنه كي يغادر المنطقة على الأقل بعد أن فقد الأمل بالعودة به إلى ما كان عليه سابقاً. وبما أن الإيمان بالله يطرد الخوف من القلب، فما أن سمع فرنسيس صوت أبيه مجلجلاً حتى خرج لمقابلته وجهاً لوجه، مصرّحاً بأنه لم تعد السلاسل ترهبه ولا الضرب يخيفه.

وعلاوة على ذلك قال له بأنه مستعد لأن يتحمل كل الشرور الموجهة ضده إكراماً لله ومحبة له. أما والده فقد أدرك بما لا يتطرق إليه الشك بأنه عاجز عن الوقوف في وجه ابنه أو صده عن سبيله وأصبح همه الوحيد استعادة المال الذي في حوزته. وكان رجل الله قد نوى صرف ذلك المال على الفقراء والمساكين وعلى إعادة ترميم الهيكل المتهدم. ولكن بما أن قلبه لم يكن معلقاً بالمال فلم يخشَ فقدانه، فناوله لأبيه المصاب بداء الطمع والمتعطش للمال. وما أن تحسس أبوه المال في يده حتى هدأت سورة غضبه لكنه طلب من ابنه المثول أمام المطران غايدو أسقف المدينة كي يسلّمه كل ما لديه من ممتلكات ومقتنيات. لم يعترض فرنسيس على ذلك بل أسرع وبكل سرور للقيام بما طلبه منه والده.

وقف فرنسيس أمام المطران وبدون مقدمات خلع ثيابه عن جسده ورمى بها على الأرض معيداً إياها لوالده. ولم يحتفظ لنفسه حتى بثيابه التحتانية. ووقف عارياً أمام الجميع تماماً كما ولدته أمه. أما المطران فإذ عرف بالضبط ما كان يرمي إليه القديس فقد أعجب أيما إعجاب بحماسه وثباته على مبدأه، فنهض على الفور وتقدم منه وضمه إلى صدره ولفه بعباءته. وعلم علم اليقين أن الإلهام المقدس هو الذي يحرّك هذا الشاب العجيب، وبأن سراً إلهيا يكمن وراء تصرفه هذا. ومنذ تلك اللحظة أعلن المطران أن فرنسيس أصبح في عهدته وتحت حمايته، ففتح قلبه له ووقف معه ومنحه دعمه الكامل دون تحفظ.

ومنذ ذلك الحين شرع القديس بدعوته المباركة وقد تخلى عن الطموحات الدنيوية مكرّساً حياته لله ولخدمة الإنسانية. وحاول أن يحيا حياة بسيطة وطاهرة عله يشعر بالسلام الإلهي على هذا الطريق المحفوف بالمخاطر، ولم يعد يحول دون رؤيته لله سوى جسمه النحيل، وقد راح يطوّع ذلك الجسم لإرادته حتى لا يقف عائقاً دون تحقيق طموحاته العليا.

الشاب الذي كان لا يلبس إلا الثياب الحريرية الفاخرة ذات الألوان الزاهية ها هو يتجوّل الآن في الغابة بثياب رثة، ممجّداً الله ومترنماً بإسمه باللغة الفرنسية (التي تعلمها من أمه).

وفجأة انقضّ عليه قطّاع طُرق وسألوه بخشونة عن هويته فأجاب رجل الله بكل ثقة وطمأنينة: "أنا بشير الملك الأعظم، فماذا تريدون مني؟" فضربوه ورموه بعنف في حفرة مليئة بالثلج قائلين له: "إذاً هذا هو مكانك اللائق يا بشير الله يا شرير."

وما أن تركوه حتى تقلّب وسط الحفرة ونفض الثلج عنه ثم خرج منها. وتملّكه فرح عظيم فراح يحمد ويسبح خالق كل شيء وقد رددت الغابة أصداء تسبيحه.

أخيراً وصل إلى أحد الأديرة مرتدياً قميص واحد لا غير، فبقي في المطبخ لعدة أيام يعمل كخادم، مقتنعاً بالقليل من الحساء. ولكن بما أنه لم يجد شفقة في الدير ولم يتمكن من الحصول حتى على رداء قديم، غادر الدير ليس بدافع الإحتقار لكن بسبب العوز.

يمم وجهه مدينة غوبيو حيث أعطاه أحد أصدقائه القدامى قميصاً متواضعاً. بعد ذلك، ومع انتشار شهرة رجل الله بين الناس، فقد تذكّر رئيس الدير المعاملة غير اللائقة التي حصل عليها فرنسيس في الدير فذهب إليه الرئيس بنفسه طالباً الصفح والعفو له ولرفاقه، عن تقصيرهم بحقه، إكراماً لله.

والقديس الذي أحب التواضع التام ذهب إلى حيث كان يقيم المصابون بالبَرَص وأقام معهم، مقدّماً لهم المساعدة في كل ما يحتاجونه باسم الله وعلى حبه. فقد كان يغسل أجسامهم العفنة المتقيحة وينظف قروحهم من الصديد تكفيراً لنظرته السابقة لهم بحسب شهادته إذ قال: "عندما كنت أعيش عيشة الخطيئة كان منظر البُرص والمجذومين يضايقني، ولهذا فقد وضعني الله بينهم وإنني أتحنن عليهم الآن ولا أتأفف منهم."

وكان يقول أن منظر البُرص أيام الطيش والعنجهية كان يزعجه لدرجة كبيرة بحيث أنه كان يسد أنفه بشدة لمجرد رؤيتهم من مسافة بعيدة. ولكن حسبما قال فإنه بفضل وفعل النعمة الإلهية فقد بدأ يفكّر أفكاراً سليمة ونظيفة حتى عندما كان يحيا حياة دنيوية. وذات مرة قابل أبرصاً فدنا منه وقبّله. ومنذ تلك اللحظة راح يجاهد نفسه حق جهادها حتى تغلب عليها تماماً.

وحتى في عز حياته المادية كان يساعد الفقراء فيمد لهم يد العون ويتحنن على المصابين منهم. لقد كان دوماً دمثاً ولطيفاً في معاملته للآخرين. ولكن ذات يوم انتهر فقيراً كان يطلب منه صدقة. لكنه ندم على ذلك وراح يؤنب نفسه ويقول أنه من العار عدم مساعدة محتاج طلب منه العون لوجه الله. ومنذ تلك اللحظة عاهد نفسه بأنه لن يتأخر ثانية عن تقديم العون لكل من يطلبها باسم الله، ولم ينكث عهده أو يخل بوعده، إذ كان يعطي ما يقدر عليه عن طيب خاطر عملاً بالوصية الربانية: أعط من يسألك ولا تدر ظهرك إلى من يريد الإقتراض منك.

أول عمل شرع به المبارك فرنسيس بعد تحرير نفسه من نير الاستعباد لوالده كان إعادة بناء بيوت الله. لم يحاول بناء معابد جديدة بل قام بترميم كنيسة قديمة متهدمة لم يشأ زعزعة أساسها بل تركه على حاله وشيّد فوقه. وكأن ذلك المكان كان رمزاً إلى متانة الأساس الذي وضعه السيد المسيح، دون أن يخطر ذلك على بال القديس. وفي الحقيقة لا يقدر أحد على وضع أساس جديد بخلاف ما وضعه أصلا السيد المسيح. وهكذا رجع إلى كنيسة سان ديميانو التي تم تشييدها منذ زمن بعيد، وبنعمة وقدرة الله أعاد بناءها في فترة زمنية قصيرة. وهذا هو نفس المكان المبارك والمقدس الذي تحوّل إلى دير للراهبات الناذرات للعفة بعد ست سنوات من اهتداء القديس فرنسيس إلى الطريق الرباني.

التزم رجل الله المبارك بزي واحد من الثياب. وبعد ترميمه كنيسة سان ديميانو ذهب إلى مكان آخر قرب أسيزي حيث شرع في إعادة بناء كنيسة كانت شبه متهدمة، ولم يتوقف حتى أكمل مهمته. بعد ذلك ذهب إلى مكان آخر يدعي بورتيونكولا حيث كانت هناك كنيسة للعذراء مريم تم تشييدها منذ عهد بعيد، لكنها كانت الآن مهجورة ومهملة. وإذ رأى رجل الله حالتها المتداعية تحرّكت مشاعره المقدسة، لا سيما أن محبته لأم الخير السيدة مريم عليها السلام كانت تضطرم في صدره، فقرر أن يقيم هناك بكل غيرة وحماس. في هذه الأثناء كان يرتدي زي النسّاك وكان يشدّ خصره بحزام من الجلد ويحمل بيده عصا وينتعل حذاءً بسيطاً.

منذ ذلك الوقت راح يعظ الناس بكل فرح وهمة ويحثهم على التكفير عن خطاياهم ويعلّم سامعيه بكلماته البسيطة النابعة من قلبه الشريف. وكانت كلماته كالنار الحارقة، تخترق أعماق النفوس وتملأ قلوب سامعيها بالدهشة والتعجّب. وبدا مختلفاً تمام الإختلاف عما كان عليه من قبل، إذ بات بصره شاخصاً إلى السماء ولم يعد منحصراً في الأرض والدنيويات. لقد كان يبدأ وعظه بالقول: "ليمنحكم الرب السلام." وكان بالفعل يسلّم على الناس سلاماً صادقاً نابعاً من قلبه لكل من يقابله في طريقه، فلامس بذلك قلوب الكثيرين حتى الذين كانوا يكرهون السلام والخلاص أحسّوا بتأثيره الروحي عليهم وتحوّلت طبائعهم فأصبحوا أناساً جديدين يطلبون السلام ويبحثون على الخلاص الأبدي.

من بين هؤلاء كان أحد سكان أسيزي. لقد كان هذا الرجل، الأخ برنارد، ورعاً وطيب القلب. وكان أول من اتبع رجل الله، إذ سار في موكب السلام وسارع في الجري وراء القديس فرنسيس طمعاً بملكوت السماء. وكان يحسن ضيافة القديس، وإذ اختبر في ذاته بعضاً من الحالات الروحية التي كان يعيشها القديس وانتعش بعبير قداسته فقد كرّس نفسه للطاعة

والخدمة. وقد لاحظ أن القديس كان يمضي الليل بطوله في التأمل والصلاة، لا ينام إلا نادراً، يذكر الله في كل لحظة ويشكره على فضله العميم.

فراح برنارد يقول بينه وبين نفسه: "والله العظيم هذا الرجل هو مبعوث إلهي." وعلى الفور باع كل ما لديه ووزع ماله على الفقراء، وأصبح لصيقاً بالقديس لا يفارقه حتى ازداد عدد الأخوة فطلب منه القديس أن ينتقل إلى مكان آخر. كان الأخ برنارد قدوة للآخرين في الطاعة والعطاء، وكم كان فرح القديس فرنسيس عظيماً بانضمام الرجل العظيم برنارد إليه، وقد شعر أن الله قد امتن عليه برفيق وصديق نادر الوفاء والولاء، هو في أمس الحاجة إليه.

ثم أن رجلاً آخر من أسيزي تبعه. وهذا الرجل يستحق الثناء والإكبار لسلوكه الطيب وعزيمته النافذة في اعتناق الروحيات. من ثم أتى الأخ جايلس الذي كان بسيطاً ومستقيماً ومتقياً الله حق تقواه. ولقد عاش عمراً مديداً يحيا حياة مقدسة بكل ورع وعدل. وهو أيضاً كان مثالاً يُحتذى للطاعة والعمل الجسدي الدؤوب والعزلة الروحية والتأمل المقدس. كما انضم أيضاً الأخ فيليب إلى جماعة الخير فأصبح عدد أفرادها سبعة. ولقد لامس الله فم فيليب فصار ينبوعاً للعبارات الطيبة العذبة والكلام المنعش والشافي. كما كان أيضاً عالماً بالكتب المقدسة وملمّاً بشرحها بالرغم من عدم دراسته المنتظمة. إذ كانت بصيرته متفتحة وروحه متناغمة مع معلمه وصديقه الحبيب القديس فرنسيس.

وهكذا فقد كان الأب المبارك فرنسيس ممتلئاً يومياً بتعزية وبركة الروح القدس، وبكل يقظة واهتمام كان يبني أبناءه الروحيين الجدد ويشجعهم على السير بخطىً ثابتة غير متقلقلة على دروب الزهد المقدس والبساطة المباركة. ذات يوم وبينما كان يتأمل بالنعم الإلهية التي حلّت عليه، تمنى لو أن الله يظهر له مسار حياته وحياة إخوته، فالتمس مكاناً منفرداً وراح يصلي كما كان يفعل دوماً، واستمر في الصلاة والتأمل لفترة طويلة، مردداً: "يا رب رحمتك وعونك وغفرانك." وفجأة راح يشعر بفرح عظيم لا يوصف وبعذوبة فائقة تغمر كل كيانه وتملأ قلبه بالغبطة، فأدرك أن الله قد استجاب وغفر له. ورأى نوراً يحيط به وقد تمدد وعيه واتسعت مداركه وأبصر بكل وضوح وجلاء الأحداث القادمة. وتدريجياً زالت تلك العذوبة واختفى ذلك النور، لكنه شعر بانتعاش كبير في روحه وكأنه تغيّر إلى شخص آخر.

ولدى عودته إلى إخوته قال لهم بفرح: "تشددوا وتشجعوا يا إخوتي الأحبة وافرحوا بالله ولا تحزنوا بسبب قلة عددكم. ولا تقنطوا لأن الله قد أظهر لي بأن جماعتنا ستزداد ازدياداً كبيراً وسنكون في كل جزء من العالم. وسأخبركم يا أحبائي بما رأيته بالرغم من رغبتي في الإحتفاظ به في قلبي. ولكن من أجلكم ولصالحكم سأخبركم بالرؤية الإلهية التي اختبرتها. لقد رأيت جمعاً غفيراً من الناس يأتون إلينا ويرغبون في العيش معنا وينتهجون أسلوب حياتنا الروحية. كما سمعت أصواتهم في أذنيّ وهم يسيرون ذهاباً وإياباً بأوامر الطاعة المقدسة. ولقد رأيت الشوارع ممتلئة بهم وهم قادمين من كل بقعة من بقاع الأرض. رأيت الفرنسيين ورأيت الأسبان والألمان والإنكليز يتراكضون، مثلما رأيت آخرين يتكلمون بألسنة مختلفة." وما أن سمع الأخوة هذا الكلام حتى حلّت عليهم النعمة وغمرتهم البركات وشعروا بالفرح المقدس لأن

الله قد اختصّ حبيبهم القديس بنعمته، ولأن الناس سيقبلون جمعاً وفرادى إلى المياه المباركة التي من يشرب منها لا يعطش بعدها أبداً.

ملاحظة: رؤية القديس تلك حصلت منذ حوالي الثمانمائة سنة وتم تدوين هذا الكتاب بعد وفاة القديس فرنسيس بفترة وجيزة إذ كان المؤلف توماس أوف سيلانو أحد تلاميذه ومعاصراً له. وبعد تلك الرؤية بثمانية قرون – سنة ٢٠٠٠ - ذهب المترجم إلى إيطاليا وزار مدينة أسيزي وقد تزامن وجوده في تلك المدينة مع يوبيل القديس فرنسيس الذي حضره آلاف الزوار من كافة أنحاء العالم وكانت شوارع أسيزي الضيقة تغص بالناس من كل الجنسيات وهم يتكلمون لغات مختلفة بما يطابق تماماً وصف القديس لتلك الرؤية.

وقال القديس لتلاميذه:

"يا إخوتي، لكي نتمكن من شكر الله حق شكره على نعمه التي فاض علينا بها، ولكي تعرفوا طريقة الحياة التي سنحياها نحن والإخوة في الحاضر والمستقبل يجب أن تعوا جيداً حجم المسؤولية وتستعدوا لها بكل همة ونشاط. سنجد ونحن في بداية طريقنا ثماراً حلوة وشهية، ولكن ستصبح تلك الثمار في ما بعد أقل حلاوة، وأخيراً سيتحول طعمها الشهي إلى مرارة بحيث لا يمكننا أكلها بالرغم من أن مظهرها سيبدو جميلا وطيباً. وبالحق كما أخبرتكم سيزيد الله عددنا، ويجب أن نكون أمناء لدعوتنا وأن تكون نوايانا صافية تجاه بعضنا البعض حتى نتمكن من خدمة ومساعدة الناس حباً وإكراماً لله."

ولقد تحققت نبوءة القديس العظيم الذي فتح الباري عليه وأطلعه على العلوم الغيبية.

وخلال هذه الفترة انضم أحد الرجال الطيبين إلى جماعتهم فأصبح عددهم ثمانية، فجمعهم القديس المبارك وأطلعهم على أمور كثيرة تتعلق بملكوت الله والزهد الإختياري بالدنيويات وقهر الجسد والتغلب على شهواته. ثم قام بتقسيمهم إلى أربع مجموعات كل مجموعة تتألف من اثنين وقال لهم: "اذهبوا يا أعز إخوتي إثنين إثنين إلى أرض الله الواسعة مبشرين بالسلام وغفران الخطايا. واصبروا على الشدائد وكونوا واثقين من أن الله سيفعل إرادته ويحقق وعده. من يسألكم أجيبوه بحلم وتواضع. باركوا معذبيكم، واشكروا من يؤذيكم ويفتري عليكم، لأنكم متى اجتزتم هذه الامتحانات ستدخلون مملكة السماء التي في انتظاركم."

وما أن سمعوا هذه الوصايا حتى ارتموا على الأرض أمامه بكل طاعة وفرح ومحبة، فعانقهم واحداً واحداً وقال لهم بكل محبة وعذوبة: "ألقوا على الله همكم وتوكلوا عليه يا إخوتي وسيعضدكم ولن يخذلكم أو يخيّب رجاءكم." وهذا بالفعل ما كان يقوله لأي من الإخوة عندما كان يبعثهم في مهمة.

عندئذ توجه الأخ برنارد مع الأخ جايلس إلى سان جيمس (في إسبانيا). أما القديس فرنسيس فقد توجه مع أحد رفاقه إلى بقعة أخرى من الأرض، والأربعة الباقون ذهبوا كل اثنين معاً إلى مناطق أخرى. وبعد انقضاء فترة قصيرة اشتاق القديس فرنسيس إلى رؤية إخوته فابتهل لله كي يجمع شملهم وحنّ من كل قلبه إليهم وتمنى على الرب أن يلتقيهم ثانية. وهذا ما حدث بالفعل، إذ خلال فترة وجيزة عادوا فالتقوا مثلما تمنى دون أي واسطة بشرية فشكروا الله على هذا اللقاء وفرحوا فرحاً عظيماً عندما شاهدوا راعيهم الأمين وقديسهم الثمين وتعجبوا كيف أنهم جميعاً شعروا بالرغبة القوية للّقاء فحقق الله رغبتهم.

وحدّثوا بعضهم بالأعمال العظيمة التي قام بها الله من خلالهم، وطلبوا من أبيهم الروحي أن يسامحهم على تقصيرهم إن كان قد حدث من تقصير منهم وأن يؤدبهم حتى يتمكنوا من أداء

مهمتهم بكيفية أفضل. وكانوا أمناء معه إلى أقصى درجة بحيث لم يخفوا عنه حتى الخواطر التي كانت ترتسم بأفكارهم والرغبات التي يحسّون بها في قلوبهم. وكانوا دوماً يعتبرون أنفسهم مقصّرين حتى عند أداء مهامهم على أكمل وجه. لقد امتلأت قلوب هؤلاء الأخوة بروح الطهارة والمحبة ونواياهم بالخير وتقوى الله. أما قديس الخير فقد عانق بنيه الروحيين بمحبة لا توصف وراح يحدثهم عن غايته في الحياة وعن الأمور التي أظهرها الله له.

وفي الحال انضم أربعة رجال طيبون وذوو شأن وتأثير إلى الجماعة واتبعوا قديس الله البار فانتشر الخبر بسرعة في المناطق المجاورة وراح الناس يتحدثون عن هذه الظاهرة المثيرة وذاع صيت القديس وانتشر انتشاراً واسعاً في كل المناطق المجاورة. لقد كان القديس ورفاقه يبتهجون بالروح ويتهللون لمجرد انضمام أخ جديد إليهم مهما كانت خلفيته ومكانته وحاله وحالته: فقيراً أم غنياً، نبيلاً أم وضيعاً، محترماً أم محتقراً، حكيماً أم ساذجاً، متعلماً أم أمّياً، ما دام أنه قد استجاب لنداء الله وانضم إلى الطريق الجيد.

أما العلمانيون فقد شعروا أيضا باندهاش كبير لما يحدث بينهم وتعجّبوا من روح التواضع التي أظهرها القديس وأخوته فراحوا يعملون ما بوسعهم لتغيير أسلوب حياتهم، طالبين السماح والمغفرة لخطاياهم.

لقد كان التأثير الروحي للقديس فرنسيس في منتهى القوة بحيث راح الناس يتقبلون رسالته ويفتحون قلوبهم لمحبته التي لم يستطع أحد مقاومتها. وكان إن سمع بخصام بين الناس يجمعهم ويطلب منهم أن يتصافوا ويتحابوا إكراماً لله فيتناسوا خلافاتهم على الفور، ويتصالحوا ويعانق بعضهم بعضاً ويشعروا بأن بركة عظيمة حلت عليهم بوجود القديس بينهم.

وهكذا أمضى القديس فرنسيس بقية حياته هائماً في حب الله، باذلاً قصارى جهده لتنوير الناس وتبصيرهم بأهمية الحياة الروحية وخدمة الله وعياله بكل محبة وإخلاص وتواضع.

هذه بعض مقتطفات من حياة القديس فرنسيس الذي يعتبر أعظم شخصية في العالم المسيحي بعد السيد المسيح عليه السلام.

والسلام عليكم.